المادة والحياة

في حرب

للفيلسوف الكبير : هنري برجسن

قيل ان الفلسفة تقول للمرء Comprendre et ne pas s'indigner « أي تبصر ولا تغتظ » أما أنا فأخالفها في ذلك واذا رأيت الجرائم تُرتكبُ وخيرت فيما أفعل فاني أفضل أن أطلق لغيظي العنان ولا أبصر . ومع ذلك فلسنا مخيرين بل نحن مدفوعون لغيظ لأن بعض ضروبه اذا تبصر المرء في مرماها زادت قوة وتجددت سورتها . وغيظنا من هذا النوع . فاتا اذا أمعنا النظر في مرامي هذه الحرب زدنا حنقاً من شيبها ولا أسهل من اثبات ذلك كما سيجيء

عكفت المانيا على الشعر والفلسفة منذ زمن طويل مدعية أنها خلقت للفكر والخيال ولا شيء حقائق الاشياء . نعم ان ادراكها كانت مختلة وانها كانت مفسومة تلك مناظرة متخاذلة حتى خيف من انتشار الوضى فيها

نظرة الفيلسوف الصادقة تتخطى حدود الزمان والمكان لانها تتغلغل من ظواهر الاشياء الى أسرارها . وهذا فصل للفيلسوف برجسن كتبه في أثناء الحرب العالمية الماضية ، تأمل فيه بعض الاشياء واخوذ العبرة منه كما تأمل كتبه اليوم . فيطالعه قراء المقتطف بعد ربع قرن من الزمان والذهن يختلج بهم في اثناء مطالعته من الماضي الى الحاضر وغيوبه الى الغابر المنظر

بعض الاحيان انتشاراً لا قامع له . ولكن الناقد البصير كان يرى تحت هذا الاختلال الظاهر شجرة الحياة التي تكون دائماً في أولها غضة كثيرة الفروع ثم تشذب وتهذب حتى تصير في الشكل الذي يراد بقاؤها فيه . فكان من المنتظر ان تتولد من مجالسها البلدية ادارة حسنة تضمن النظام ولا تنفي الحرية ، وان ينشأ من اتحاد ممالكها المتحالفة ما يسمى باتفاق المتحالفات الذي هو اكبر ضمان للاجسام الحية . ولكن هذا الأمر لا يتم في يوم أو يومين بل لا بد له من زمن كاف كما هي الحال في سائر الاحياء اذا اريد ان تعمل كل ما هو مقدور لها من الأعمال

لما كانت المانيا جارية في تكوين وحدتها كمجموع حي كان فيها او فيها اشبه شأنهم تحويل كل شيء الى صورة صناعية . وهذا

كان شأن مملكة بروسيا في تكوينها فنها تكونت بضم بعض الولايات المأخوذة بالغلب أو بالكسب ضمًّا صناعيًّا كأنها قطع ثوب خيط بعضها ببعض فكانت ادارتها صناعية آلية وجرت في اعمالها مجرى الآلات في دقتها وانتظامها . ومثلها صار جيشها الذي كان ممتنع النظير ملوكها من آل هوهنزلرن . ومما لاريب فيه ان الناظر الى بروسيا يرى في اعمال أهلها وتصرفاتهم من التدقيق والسير على خطط مطومة محدودة ما يدل على انهم آلات صُمٌّ متحركة وذلك من اشارات ملوكهم الى خطوات جنودهم إما لانهم تمرنوا على اطاعة العياء قروناً عديدة وإما لأن محبة الغلب والنهب المغروسة فيهم استولت على حياة الامة وحولت انظارها ومطالبها الى ما هو مادي محض

وجاء يوم وقفت فيه المانيا بين امرين لتختار واحداً منهما اما الوحدة الصناعية الميكانيكية التي فرضت عليها فرضاً من الخارج وإما الوحدة الحيوية الطبيعية التي تولدها الحياة من الداخل. وكان عليها أن تختار لكل حالة من هاتين الحالتين الادارة التي تناسبها إما الادارة الصناعية المقيدة بما فيها من الانتظام التام ولو كانت خالية من التجدد الحيوي مثل كل نظام صناعي وإما الادارة الطبيعية الحرة التي ينشئها الناس الاحرار اذا ائتلفوا بمقتضى ارادتهم من غير اكراه فأيهما اختارت ؟

كان في المانيا حينئذ رجل تجسمت فيه روح بروسيا . رجل نابغة ولا شك ولكنه نابغة في الشر لأنه كان بلا ضمير ولا ايمان ولا محبة . أزال النمسا من سبيله لئلا تفسد عليه الغرض الذي كان يسعى اليه . ثم قال لنفسه انا عازمون ان نجعل المانيا تتمتع مع بروسيا بكل ما تتمناه وتطمع فيه فاذا ترددت عن اجابة طلبنا لأن شعبها لم يشأ ان يعمل بما نقول باختياره فاني اعلم كيف اضطره لذلك، ازج به في حرب عوان في مقارعة عدوٍّ لنا كلنا، عدو خدعناه وتربصنا به نوائب الدهر وسنأخذه على غرَّة وحينما ينفع في بوق الظفر النوم واجعل المانيا تتوالى على نفسها وهي سكرى بخمرته ان لا تعمد الحسام حتى تنال كل أطايب الارض

قال وفعل وآلت المانيا على نفسها ان تفعل قوله . ثم أوجب عليها ان لا تخلع سلاحها عنها لكي لا تنكث بعهدها ومن موالاة التي رواها عنه اخصاؤه قولهُ « انا لم نأخذ من النمسا شيئاً بعد معركة سادوى لكي نستطيع ان نصالحها يوماً ما وعليه فقد أخذنا من فرنسا الالزاس وجانباً من لورين لكي لا يبقى مكان للصلح بيننا وبين المانيا قصداً ان لا يبرح من ذهن الالمان انهم في خطر دائم من الحرب فيجب عليهم ان يفوصوا في سلاحهم ولا يخلعوه أبداً اني يجب على المانيا ان تعمد بروسيا في مقاصدها غربية وفي التأهب لتحارب بدلاً من ان يكون انضمامها اليها واسطة لتقويتها واستغنائها عن الحرب

ثم انضمت للمانيا الى بروسيا فتألفت من ذلك قوة حربية زادت منعة سنة بعد سنة لكنها تخطت الحدود التي قدرها لها بسمارك وحدث في أمرها ما حدث في أمر الساحر الذي يقال انهُ استحضر جنية وعزَّم عليها حتى تأتيهُ بدلو ماء تفرغهُ في بيتهِ وهو لا يعرف كيف يصرفها فظلت تجلب الماء وتفرغهُ حتى أغرقتهُ

نظَّم ملوك بروسيا جنودهم وبرَّزوها وعتوا بها حتى صارت عنوان الكمال في حسن نظامها وتدريبها وغرضهم من ذلك ان يجعلوها آلة لنيل مآربهم وهو اجتياح ما يمتلكهُ جيرانهم من الاراضي لان الناس فيما كانوا يملكون شيئاً آخر فكانت ثروة الانسان تقدر بما يمتلكهُ من الارض . ولكن لما جاء القرن التاسع عشر واستخدم الناس العلوم الطبيعية لمنافعهم المادية فارتقت الصناعة واتسعت التجارة صار للثروة وجوه اخرى . ثم لما وضعت الحرب اوزارها سنة ١٨٧٠ رأت المانيا وهي طامحة بنظرها الى امتلاك خيرات العالم ان لا بدَّ لها من ان تصير صناعية تجارية وهذا لا يستلزم ان تغير انسانيتها من حيث التدقيق والتنظيم والاستطلاع بل يدعوها لان تزيد امتساكاً بها وتضيف اليها الفطرسة والحاسوسية اللتين هما دعامة قوتها الحربية . فتأهبت بالصناعة والتجارة وقوتهما لا تقل عن قوة جيشها وتغزو بهِ وبهما ممالك الارض

ومن ثمَّ جعل جيشها وصناعتها يسيران جنباً لجنب متعاضدين الجيش الذي تجسم فيهِ حب الفتح والظفر وسعهُ البوارج الحربية المتكلة له . والصناعة التي جاءت منقادة الى حب الفتح نمت الصناعة الالمانية وأينعت من كل الوجوه ولكنها لم تنحرف عن غايتها الحربية . فأنشئت معامل كبيرة لبرّ انعالم لها مثيلاً ضمت ألوفاً من العمال وعلمهم سبك المدافع والى جانبهم عمال آخرون اتحفوا كل اختراع اخترعهُ ذكاء الأمم المجاورة وحولوه عن غايتهِ النافعة وجعلوه آلة للحرب والدمار . فزاد الجيش والاسطول قوة ومنعة بزيادة الثروة الناتجة من نمو الصناعة والتجارة فأوفى الثروة ما أنفقتهُ عليهما بأن وفقا طوع أمرها وجعلا يمتحان النسل والاسواق للصناعة والتجارة . ولكن هذا المجموع الكبير المركَّب من الصناعة والتجارة والجيش والاسطول الذي صار سيراً حثيثاً بضغط ملوك بروسيا عليهِ وضغط بروسيا على المانيا يزداد سرعتهُ بالاستمرار كان لا بدَّ لهُ من ان ينحرف عن جادتهِ لشدة سرعته فيخرج عن كل قيد ويتدهور الى الهلاك

ان الرغبة في الفتح والظفر لا تشبع ولكنها تصغر ان تقف عند حد ما لذا انتصر صاحبها

على تملك بلاد جيرانه . فلما رغب ملوك بروسيا في توسيع ملكهم اضطروا ان يحاربوا جيرانهم حروباً متوالية ولكن الواحد منهم لم يستطع ان ينتصب في الحرب الواحدة اكثر من ولاية او ولايتين لقلة ذات يده ولكن لما اتسعت الثروة لم يعد للرغبة في الفتح حد تقف عنده فجتمعت المطامع التي كانت تظهر آونة بعد أخرى لان الاحوال لم تسمح بظهورها في وقت واحد — اجتمعت معاً على غرض غير محدود كما انها هي غير محدودة . فحيثما وجدت مواد للصناعة ومرافىء لاصلاح السفن وامتيازات لذوي الاموال واسواق للبضائع التجارية فهناك ادّعت المانيا ان لها حقوقاً مقررة . والواقع ان السياسة التي أفادت بروسيا وآلت الى ارتقائها انتقلت دفعة واحدة من التقدير والتدقيق الى التفحم والتهور . فان بسمارك الذي قادهُ عقلهُ الى وضع النيود لمطامعه كان خصماً للاستعمار وقد قال ان كل مصالح الشرق لا تساوي عظام جندي من الحرس البومراني . ولكن المانيا سارت على الخطة الاولى التي اختطها لها ثم اندفعت فيه لا تلوي على شيء ضاربة شرقاً وغرباً حيث لا تجد مقاومة كبيرة قاصدة ممالك الشرق وممالك البحار فأثارت بفعلها هذا الحرب على الأمم التي تمكن بسمارك من محالفتها او مصادقتها ووضعت نصب عينيها سيادة المسكونة كلها

ولم يكن عند المانيا وازع ادبي يضع حداً لمطامعها فلما سكرت بخمرة الظفر وبما وصلت اليه من المجد والسؤدد بظفرها وبما جنتهُ علومها وفنونها من هذا الظفر رأت من النجاح المادي ما لم تعرفهُ من قبل ولا حلمت به ولا خطر على بالها فقالت ان كانت القوة قد انتجت هذه النتائج وأدالتني الثروة والعزة فيها سرٌّ خفي وجوهر روحاني . وان القوة الوحشية وما يشبهها من الحيل والاخاديع اذا امتزجت بمهارة كافية للتغلب على العالم فهي منحة من الله ووحي السماء . والشعب الذي أعطي هذه القوة هو شعب الله المختار وعبيده من الشعوب عبيد لهُ ولا يحرم عليه شيء يفضي الى تمرير سلطته . لا يقول أحدٌ ان الحق لا يهضم فان الحق الا ما يتفق لنا عليه ولا اتفاق لا يكون الا بحسب مشيئة الغالب اي بحسب ما تملي قوته . فالقوة والحق سيّان فقد شاءت القوة ان تسير في خطة جديدة صار الحق القديم في خبر كان وصار الاتفاق لسابق قصاصة ورق . ولما رأت المانيا ما أدهشها من فوز قوتها الوحشية وما ترتب على فوزها من نجاح مادي حرّك دهشتها هذه آنفاً من العوامل النفسية فجاهرت مفاخرة من كل صوب

عوامل وآمال كانت في نفوس شعرائها وفلاسفتها — في نفس كل من يستطيع ان يقنعها بصحة ما صمت عليه ولو خداعاً فصارت اغراض المانيا مذهباً فلسفيًّا نادى به الاساتذة في المدارس والجامعات فانضمت به الأمة وما أسهل ما انطبعت بعد ان أُلِفت الانقياد الأعمى . ولم يكن لها غرض أسمى منهُ تقاوم به أغراض اهل الحل والربط

ولقد قال كثيرون ان سياسة المانيا مبنية على هذا المذهب وعندي انها فلسفة تحوّل الطمع الاثمي والارادة التي أعمتها الحيلاء الى ما تزعمهُ اغراضاً سامية . وهذا المذهب نتيجة لا سبب. وسيأتي وقت حينما ترى المانيا ما أصابها بسببه من الحطة الادبية، فتقول معتذرة انها أفرطت في ثقتها ببعض التعاليم النظرية وان الخطأ في الحكم ليس جريمة . فيقال لها حينئذٍ ان فلسفتها لم تكن سوى طريقة للتعبير بألفاظ فلسفية عن توحشها وجشعها وقبائحها . وهذا شأن اكثر الناس فان ما يعدُّونهُ مذهباً لهم ان هو الاَّ اساليب يعبرون بها عن احوالهم واعمالهم . فانهُ لما صارت المانيا دولة الغزو والنهب استشهدت على صحة عملها بالفيلسوف هيجل كما تستشهد على محبتها للجمال الأدبي بالفيلسوف كانت وعلى رقة قلبها بجاكوبي وشوبنهور . واذا كان لها سبيل آخر ولم تجد بين فلاسفتها من تستشهد به وتستند اليهِ استشهدت بفيلسوف اجنبي . فانها لما ارادت ان تقنع نفسها بان مستقبل الامم مقدور لهم استشهدت بكاتب فرنسي وعدَّتهُ بين المشهورين ولو كنا نحن لا نسلم لهُ بهذه الشهرة وهو غوبينو

ولكن متى صار الطمع القبيح مذهباً سهل عليهِ كلُّ صعب واستُحلَّ فيهِ كل امر . فان الشعب الالماني ادَّعى انهُ شعب الله المختار الذي يحقُّ لهُ وحده ان يعيش كما يشاء واذا سمح لغيره ان يعيش معهُ فذلك كرم اخلاق منهُ . وهذا السماح هو السِّلم . واذا ثارت الحرب حقَّ لالمانيا ان تستأصل اعداءها ولا تكتفي بقتل الجنود الذين يحاربونها بل تلحق بهم النساء والعجائز والاطفال وتنهب وتحرق ويكون غرضها الذي تسعى اليهِ ان تخرب البلاد وتفني العباد . هذه هي النتيجة اللازمة عن مذهبها

ولما كانت الحرب وسيلة للفصل في الخصومات بين الدول كانت محصورة في جنود الدولتين المتحاربتين ثم جعل الناس يطالبون بما لا داعي لهُ ولا فائدة منهُ من الاضرار والتخريب وقضوا ان لا ينالوا غير المحاربين بأذى ونظموا قوانين لتحريم جروح عليها . الاَّ ان الجيش الالماني لم يرضهِ هذه القوانين لان غايتهُ الغلبة بأية واسطة كانت . ثم لما صارت جنود روسيا جنود المانيا

الصناعية لم تعد المانيا تكتفي بتحشد شوكة عدوها الحربية بل طلبت ايضاً ان تستولي على صناعته وتجارته وثروته ومصادرها وقالت ان لا بدَّ لها من ان تخرب معاملهُ حتى تزول مناظرتهُ لها وان تنهب مدنهُ وتحرقها حتى يفتقر وتفنى هي بفقره . ويجب ان تكون الحرب قصيرة المدة لكي لا تخسر كثيراً ولان قوتها الحربية ينقصها الشعور بانها على حق وان الحق فوق القوة وهو يقوي اصحابهُ ويجدد قواهم . ولما كانت قوتها الادبية محصورة في الافتخار الناتج من قوتها المادية فهي عرضة لتقلبات الدهر كالقوة المادية فاذا فقدت قوتها المادية فقدت معها قوتها الادبية فلا يحسن ان يبقى سبيل لفقد هذه القوة بل يجب على الآلة المادية ان تضرب ضربة قاضية دفعةً واحدة وذلك بارعاب السكان وشل اعصاب الامة المادية . وللوصول الى هذه الغاية ينبغي ان لا يترك شيء يقف في سبيل هذه الآلة ومن ثمَّ قرَّ القرار على ارتكاب كل انواع الفظائع ونظَّم ذلك تنظيماً متقناً كما نظَّم الجيش

هذا تحليل ما نراهُ امام عيوننا حتى صرنا نسمع قولهم بربرية علمية و بربرية منظمة وبربرية بنيت على قواعد العمران . ويطرق مسامعنا في كل ما تقدم من تاريخ هذا النظام فتنة الاعتماد على القوة الحربية والعوامل الصناعية والآداب المادية

متى مرَّت الشؤون ولم يبقَ ما نراهُ الآن الا صورة محقة فالفيلسوف الناظر الى تاريخنا قد يقول ان القرن التاسع عشر استخدم العلم لتوسيع نطاق الفنون الآلية فجهَّز الانسان في اقل من خمسين سنة بآلات وادوات تزيد على كل ما استعمل مدى الوف من السنين السابقة فاستخدم هذه الآلات والادوات كأنها اعضاء جديدة طالت بها اعضاؤه وقويت فكبر جسمهُ بها من غير ان تكبر نفسهُ فوقع بينهما اختلاف كبير نتج عنهُ مشكلات كثيرة أدبية واجتماعية وقومية حاولت اكثر الأمم حلها وملء الفراغ الذي في جسم السياسة بتوسيع نطاق الحرية والاخاء والعدل . وبينما كان الناس يسعون هذا السعي الروحي الجيد قامت قوى الجحيم وكادت لهم مكيدة جهنمية لانها جعلت الوسائل الميكانيكية التي أعدَّها العلم لخدمة الانسان تملك الناس حتى تصير نفسهم مادية مثلها . فكيف يصير الحال اذا تسلط هذا النظام المادي على نوع الانسان وجعل الناس آلات جامدة منجذبة بعضها الى بعض بقدر جهلهم في الارتقاء الجوي الذي تتفق فيه المتخالفات وتعمل معاً لغرض واحد . وكيف يصير الناس متى انقادوا انقياداً أعمى لكل امر يؤمرون به من آلة صماء تحجز عقولهم وضمائرهم وفقدوا المقدرة على التمييز بين الخير والشر

يفقدهم روح العدل . كيف يصيرون متى قامت القوة الوحشية مقام القوة الادبية . واي توحش يصل اليه الناس متى حدث كل ما تقدَّم وكلَّت النفوس حتى يطل شعورها . وماذا يحدث اذا انكفأت قوى الناس الادبية وعادت الفهقرى في الساعة التي كادت تصل فيها الى غايتها العظمى وقامت قوة شيطانية جعلت الروح مادية بدلاً من جعل المادة روحية . هذا ما نحاول ذلك فان ملوك بروسيا سلحوا بروسيا وبروسيا سلحت المانيا وسار الجميع معاً في نظام آلي حربي توخى المحالفة مع الصناعة والتجارة حتى اذا تمت له كان منهما قوة هائلة وحينئذٍ تصير اشارة من هذه القوة كافية لجر أمم الارض كلها وجعلها تسير في خطة الالمانيين وتخضع لأوامرهم وهذا هو المراد بالحرب حينما أقرَّت المانيا على اعلانها

ولقد أقرَّت المانيا على الحرب وأعلنتها ولكن نتيجتها لم تأت كما قدرت لان القوى الادبية التي اعتقدت انها تخضع للقوى المادية نهضت واثبتت انها هي الموجدة للقوى المادية حتى ان شعباً صغيراً جعل شرفهُ على مقاومة امبراطورية كبيرة . ولما امعن العدل نهضت أمة اخرى لم تكن تعبر بسطوتها وفي اقل زمن حمل السلاح مليون بل مليونان من رجالها . وأعجب من ذلك ان امة ثالثة كان يظن أنها منقسمة على نفسها انقساماً يوجب خرابها صار كل أبنائها اخوة في يوم واحد . ومن ثمَّ لم يبق ريب في نتيجة هذه الحرب . فترى من الجهة الواحدة قوة ظاهرة سطحية ومن الجهة الاخرى قوة باطنة عميقة . الاولى آلة صماء اصطناعية لا تستطيع ان تصلح نفسها اذا تخرَّبت والثانية حياة تتجدد في كل لحظة الاولى تزول بالاستعمال والثانية تبقى على الدوام

ويقول الفيلسوف الناظر في تاريخنا ان تلك الآلة جرت على العمل زماناً طويلاً لا تكل ولا تمل ثم كلت ثم انكسرت ولكنها سحقت الجم الغفير من أبنائنا سحقتهم وهم في ريعان الشباب وعنفوان القوة وسيطول بكاؤنا عليهم . ومن السنن المحتومة على الروح ان ترى المادة مقاومة لها وان الرزايا تصيب الاحياء

لكن الدم الذي أريق في هذه النوبة كان دماً زكيًّا والوجوهُ التي عفرت بالتراب كانت عنوان الجمال . فانظر كيف ان القدر المحتوم جمع كل قوى الهلاك وحاجم بها الحياة لكي تكون المعركة بينهما فاصلة . فسُلب الموت ونجا نوع الانسان برزيئة مادية من السقوط الادبي الذي لو حل به لقضى عليه قضاء مبرمًا فتمايل الناس في مجلسهم وغنوا بشديد الشكر لانهم نجوا من الخراب والاضمحلال